الحب وشيطان الحرب

الطبعة الثانية
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : الحب وشيطان الحرب
اسم الكاتب: الدسوقي آدم إسماعيل
التدقيق اللغوي: منى حلمي
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٠٢٤ / ٣٣٣٤٧
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦٣٣-٨٢٥٤-٢٥-٤

مسار للنشر والتوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

الحب وشيطان الحرب

الدسوقي آدم إسماعيل

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى أمي العزيزة وأبي العزيز ، إلى من قال فيهما الله سبحانه وتعالى:(ولا تقل لهما افٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) صدق الله العظيم

إلى إخوتي وأخواتي وكل الأحباب، وإلى كل أرواح الشهداء بالدولة السودانية..

نسأل الله أن يتقبلهم جميعا.

المقدمة

بدأت القصة المأساوية في ٢٠٠٣ الفترة التي كانت فيها دارفور مشتعلة بالحروب من قبل الميليشيات التي كونها نظام الإنقاذ، وهذه الميليشيات هي خليط من قبائل عربية، وأفريقية، وبعض المرتزقة من منطقة دارفور، والدول المجاورة (تشاد، ومالي، والنيجر، ودول أخرى)، ما يُسمُّونهم بالمرتزقة الأجانب وليسوا من قبائل بعينها كما يروِّجون، كانوا في حروبهم يمتطون الخيل (الجواد) ويتسلحون أكثرهم بالجيم، فكان السلاح المحبب إليهم لما يمتاز به من الدقة والصوت العالي والمرعب، ومن هنا جاء اسم الجيم جواد.. ومنها (الجنجويد).

كانت الحكومة السودانية آنذاك تحت قيادة المشير (عمر حسن أحمد البشير) وحزبه المؤتمر الوطني، حكومة

الإنقاذ التي كانت تتبنى فكرة الإخوان المسلمين أو الحركة الإسلامية، وأشهر قيادات الحركة (حسن الترابي) المؤسس والمفكر الذي استطاع أن ينقلب على النخب السياسية الطائفية ذات القاعدة الجماهيرية العريضة، وهم الأنصار والختمية، واستطاع في أواخر عام ١٩٨٩ بقيادة انقلاب عسكري الاستيلاء على السلطة ورفع شعار الدولة الإسلامية، وكانوا يتبعون في سياساتهم سياسة (الإسلامو عروبة)، أنه ولا بد من تعريب الدولة لكي تكون دولة إسلامية، فبدأت القبائل الأفريقية وبعض القبائل العربية بالتمرد ضد سياسات الحكومة في دارفور والنيل الأزرق، ولا سيما جنوب السودان الذي كان متمردًا منذ استقلال السودان.

ظهرت في تلك الفترة عدد من الحركات المناهضة والرافضة لسياسات الحكومة، ومن أشهر هذه الحركات

حركة جيش تحرير السودان بقيادة (عبد الواحد محمد أحمد النور)، وحركة العدل والمساواة بقيادة (خليل إبراهيم) لاحقًا.

هذه الحركات تم تأسيسها من قواعد إثنيَّة نوعًا ما مما دعت القبائل والإثنيَّات الأخرى للاتحاد، وتكوين كتل للمقاومة تجاه الأخطار الخارجية، الأمر الذي جعل الحكومة تقوم باستهداف المناطق التي تعتبرها حاضنات اجتماعية لعناصر المعارضة.

استعانت حكومة الحركة الإسلامية بالقبائل العربية، وبعض القبائل الأفريقية، وأيضًا المرتزقة الموجودة في دارفور والدول المجاورة -كما ذُكِرَ آنفًا- في القضاء على المعارضة في دارفور، فدعمتهم ماديًّا، وزودتهم بالأسلحة والذخائر، واستخدمت الحكومة أبشع أنواع الجرائم الإنسانية من الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي، واستخدام

سياسة الأرض المحروقة لكل من عارض سياساته.

بدأت هذه الميليشيات في الحرق، والقتل، والاغتصاب في العديد من المحليات والقرى المجاورة، وتدميرها تمامًا، لم تكتفِ هذه الميليشيات بالهدف الأساسي لتكوينها، بل اتخذت من الحرب أهدافًا أخرى، منها.. نهب الممتلكات، والخطف، والاغتصاب، حتى وصلت الأحداث إلى منطقة (طويلة)، وهي قريبة من الناحية الغربية لمدينة الفاشر عاصمة الإقليم، وهذه المنطقة التي تمحورت فيها قصتنا وتبلورت.

محلية طويلة..

وهي محلية كبيرة تضم عدد من القرى والفرقان المجاورة، منها منطقة دالي، حِلَّة نيمة، دبة نايرة، أم جلباخ، وطويلة العمدة، وهي التي تتركز عليها القصة، وعدد من القرى التي لا يسعنا ذكرها في هذا السرد.

وكانت هذه المنطقة شديدة التهميش، ويقطنها العديد من القبائل، العربية منها والأفريقية، تصاهرت هذه القبائل فيما بينها، ونادرًا ما تجد أحدًا في تلك المنطقة يتحدث عن القبيلة.

انصهرت القبائل فيما بينها، أصبحوا كتلة واحدة، حتى جاءت هذه السياسات التفريقية، فتفرقت القبائل، وحتى الأسر المتزوجة فيما بينها كلٌّ يميل إلى قبيلته.

كان سكان هذه المنطقة أناس بسطاء في حياتهم ومعيشتهم، وحتى في ملبسهم ولغتهم العربية البدوية البسيطة، رغم التدني في مستوى المعيشة، وعدم توفر أساسيات الحياة من صحة، وتعليم، والبنية التحتية المتدنية.. إلا أنهم كانوا يعيشون حياة اجتماعية سليمة وآمنة.

كانوا يعتمدون اعتماد كلي على الزراعة والرعي، وأشهر أنواع المحاصيل التي يعتمد عليها كثير من سكان المنطقة ويتم زراعتها موسميًّا هو محصول التمباك (التبغ) أو الصعوط، وهو نوع من أنواع المحاصيل المنتشرة في السودان، ويتم زراعته في هذه المنطقة بنسبة٧٠٪، وهذا المحصول ليس محصول غذائي بل هو نوع من أنواع التبغ.

يتم أخذ أوراقه تُخمَّر وتُجفَّف، ويضاف إليها بعض الإضافات مثل: بيكربونات الصوديوم أو العطرون، وتوضع على شكل قطع صغيرة ومدوَّرة تحت الشفاه كنوع

من المكيفات، وهو منتشر في جميع أنحاء السودان وبعض الدول المجاورة مثل.. تشاد، وجنوب السودان. بالإضافة للعديد من محاصيل الحبوب مثل.. الذرة والدخن... إلخ، وأيضًا هنالك بعض الفواكه والخضراوات الموسمية.

إذا أردنا تقسيم المجتمعات من الناحية الاقتصادية في منطقة طويلة فيمكننا تقسيمها إلى مزارعين، ورعاة الماشية والإبل، وتجار التمباك، وهم أكثر الفئات مالًا، بالإضافة إلى الموظفين المحليين والطبقة المتعلمة، وهي قلة قليلة نسبة لسياسات الحكومات التي مرت على السودان التي استخدمت في نظامها توظيف المتعلمين من المرحلة الثانوية، وهذه السياسة أدَّت إلى أن يكون سقف طموحات الطالب أن يصل إلى مرحلة الثانوية العامة لكي يتم توظيفه، ونتج عن ذلك أنه نادرًا ما تجد شخصًا من أصحاب الدرجات العليا في تلك الفترة.

فنجد أن المزارعين والطبقة المتعلمة وتجار التمباك هم أكثر الذين يقطنون داخل المحلية، والرعاة وبعض المزارعين نجدهم في مناطقهم الرعوية، يسكنون في قرى وبوادي خارج المحلية، وتجمعهم الأسواق.

والنظام التجاري يعتمد على الأسواق المحلية، وهي التي تكون بالأيام، يومين في الأسبوع، ويسمونه باسم اليوم، مثل سوق الثلاثاء وسوق السبت، وعلمنا بأن سوق السبت يكون فيه الحركة التجارية أفضل بكثير، وتأتي فيه البضائع من المناطق المجاورة، وهنالك بعض المناطق والمحليات مثل.. تابت وكبكابية، وهي محليات بعيدة نوعًا ما عن طويلة، وتختلف فيها أيام الأسواق؛ لذلك يعتمد فيه التجار على نقل البضائع التي لا تتوفر في بعض الأسواق من أسواق أخرى يسمونهم باسم (أم دورور) أي يقومون بتدوير البضائع من سوق لآخر ومن منطقة لأخرى.

وعندما اندلعت الحرب في دارفور كان دائمًا الخلاف يبدأ بين المُزارع والراعي، وذلك بدخول الراعي بماشيته داخل المزرعة، فتأكل الماشية ما تشاء مما يسبب فساد المحصول، واستمرت الخلافات الصغيرة حتى جاءت الطامة الكبرى التي عمَّت جميع أنها المحلية، وأدَّت في النهاية إلى مسح معالم المنطقة وتراثها الثقافي والاجتماعي المتنوع.

ويمكن تفسير ما حدث في دارفور عمومًا، وفي هذه المنطقة على وجه الخصوص بما قاله (ابن خلدون) مؤسس علم الاجتماع عن العصبية، بأنها اتحاد جماعي يظهر بأقوى شكل في المجتمعات البدوية، والذي يخلق تسلسل هرمي للحكم بمهمة رئيسية، وهي الدفاع عن القبيلة ضد أي أخطار خارجية، فأُخِذَ التخويف وأُخِذَتْ الفتنة من الجهات الحكومية لزرع حالة عدم الأمان لدى القبائل تجاه بعضها، وقد قادت هذه الفتنة والتسلسل الهرمي إلى الاتحاد

والاستعداد للأخطار الخارجية، فكبر التعصب القبلي لدى مجتمعات دارفور عمومًا..

طويلة العمدة..

كانت هذه القصة في بداية الألفينات عندما اشتدت الحروب في دارفور، كنت أعيش أنا وعائلتي في محلية طويلة (إحدى محليات ولاية شمال دارفور) الفاشر، في قرية تسمى بـ(طَوِيلَة العُمْدَة)، وهي قرية من قرى محلية طويلة، وكانت عائلتي تتكون من ستة أفراد.. أمي وأبي وإخواني الثلاثة، كنا نعيش في منزل كبير في وسط المنطقة، وكان جدي من أقدم سكان هذه المنطقة، ومنزلنا عبارة عن حوش كبير يضم العائلة الكبيرة، بيت لجدي، وبيتنا أنا وأسرتي الصغيرة، وبيت لعمتي وزوجها الذي تزوجها من فترة قصيرة ولم تلد بعد.

تزوجت عمتي ليلى بعد وفاة جدتي بأربع سنوات، وهي الأخت الأصغر سنًا، كانت تعتني بجدتي وجدي وتعينهما

في بعض الأمور التي تتشارك فيها مع أمي مثل.. الطبخ، والنظافة، والغسيل... وغيرها، كانت تعتبرني أخاها الصغير، وأعتبرها أختي الكبيرة؛ فكنت أستشيرها في بعض الأمور الخاصة، وكنت أحبها كثيرًا.

عندما تقدم سلمان لخطبتها (وهو ابن لعائلة غنيَّة، وأباه من أكبر تجار التمباك في طويلة)، اشترط جدي أن تسكن معنا في نفس الحوش، ويقوم ببناء بيتًا لها ولزوجها ويسكنون بجواره، فوافق سلمان، وأصبحنا عائلة كبيرة وجميلة.

قريتنا قرية صغيرة، تضم عدد من الأسر البسيطة الكادحة التي عانت من التهميش القاهر. بيوتها بُنيت من الطين الأخضر -يسمى بالجالوص- والقش أو القصب، وتُغرز الأشواك من الخارج على القصب لمنع الحيوانات من أكلها، لذلك نجد أن شوارعها عبارة عن أزقة ضيقة وملتوية، ومليئة بروث الحيوانات، والأشواك المدفونة والموجودة

على الرمل، الأمر الذي دعا الناس لارتداء أحذية تصنع من إطارات السيارات تسمى اُمشَنْق، أو كما يطلق عليه لقب (تموت تخلي)، نسبة لتحملها اللبس لسنوات، ويمكن للشخص الواحد استخدام حذاءً واحدًا طول حياته إلى أن يموت.

وتستخدم هذه الأحذية في الزراعة والرعي لتجنب الأشواك على الأرض، حيث تكثر النباتات الشوكية مثل.. الحسكنيت والضريشة في المناطق الزراعية والرعوية، أهلها طيبون، مشغولون بزراعتهم، وتوفير لقمة العيش، وتربية أبنائهم.

نجد الرجل عند الصباح يرتدي العراقي، والسروال، وقبعة مصنوعة من السعف أو عمامة ملفوفة على رأسه تجنبًا لأشعة الشمس الحارقة، راكبًا حماره أو حصانه، ويحمل في إحدى يديه مسجل أو راديو في حجم صغير،

يسمونه المسجل، يضعه على أذنه، ويستمع إلى النشرة الصباحية ومتابعة الأخبار، والاستمتاع بالفواصل الغنائية التي تعرض على الإذاعة للفنانين القدامى، أمثال.. وردة، وسيد خليفة. وهو متجهًا إلى الوادي أو البولاية -يطلق على مزرعة التمباك بـ(البُولايَة)- آخذًا معه أدوات الزراعة على حسب فترات الموسم الزراعي، مثل.. الجرَّاية لحرث الحشائش، والطورية والمنجل للحفر، والمحراث عند أول الموسم، وفي وقت الإفطار تلحق به زوجته وهي تحمل معها وجبة الفطور مرتدية ثوبها الذي تربط طرفه على خاصرتها والجزء الآخر تَلُفُّه بطريقة دائرية على رأسها، وتسمى هذه اللفافة بـ(العُوقَايَة)، لمنع الأشياء التي تُحمل فوق الرأس من السقوط حتى وإن لم يتم الإمساك بها. تجلس وتأكل مع زوجها ثم تعود إلى البيت للقيام بواجباتها المنزلية، والاستعداد لاستقبال زوجها بعد عودته من العمل.

عند نزول المطر في أول الخريف يتم حرث الأرض بالمحراث اليدوي عادة، ويتم رش بذور التمباك على الأرض بطريقة عشوائية، وهذه العملية تسمى بـ(الشَتَتْ)، فتنبت بذور التمباك متجمعة أو غزيرة في أماكن معينة وخفيفة في مساحات أخرى أو معدومة، فتأتي مرحلة الترقيع أو (المَقَنْ)، والمقن هو أخذ شتلات صغيرة من الأماكن التي تتجمع فيها النباتات وغرسها في المساحات الفارغة للمساعدة على نمو نبات التمباك بطريقة أسرع وبأوراق كبيرة وغزيرة، وبعد النمو تأتي مرحلة الحصاد أو القطع أو السَلْ، ويتم السَل أو القطع على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى، وهي قطع الأزهار، ويسمى الفَنْدِي، والمرحلة الثانية تقطع فيه الأوراق، وهذه الأوراق تصنع منها أجود أنواع الصاعود، وتسمى القَرَنْقَشْ، ثم تأتي المرحلة الثالثة، وتسمى بالكَدَو، وهذه بعد أن تجدد النباتات

أوراقها بعد قطعها في المرة الأولى.

والكَدَو أقل جودة من القَرَنْقَشْ، وعادة في مرحلة السَل تأتي جميع أفراد الأسرة للمساعدة في قطع أوراق التمباك، حيث يأخذ كل واحد منهم رِيْكَة وتَقْدِي، والريكة تصنع من السعف على شكل نصف اسطواني مجوف لوضع المحاصيل عمومًا، والتَقْدِي أداة مثل السكين تستخدم في القطع.

يتم قطع الأوراق ووضعها على الريكة، وبعد أن تملأ نأخذها، ويتم الاحتفاظ بالأوراق في مكان مخصص، وعند نهاية الدوام يتم جمع الأوراق في جوالات كبيرة تسمي بالشِّكَارة، ونقلها بواسطة الحمار إلى البيت في مكان مخصص يسمى بالصُّفْرَة لتخميرها، يتم تخمير القَرَنْقَشْ والفَنْدِي والكَدَو كل على حدة، وتجفف وتطحن وتُعبأ في جولات، وتصبح جاهزة لعرضها وبيعها، وهذا المحصول يعتبر

مصدر الدخل السنوي لأفراد الأسرة إضافة إلى المحاصيل الأخرى، كالدخن والذرة والسمسم.

وبهذا يستطيع الأب إعالة أسرته وضمان وجود قوتهم السنوي، ففي أيام الأسواق يرتدي الأب زيُّه المعهود.. جلابية، وعمامة، وحذاء جميل يصنع من جلد الثعبان أو جلد النمر يسمى المَرْكُوب، ويقوم بتجهيز حماره، ويحمل معه جوال أو شِكَارَة من التمباك، ويذهب به إلى السوق لبيعه في سوق التمباك، حيث التجار الكبار، والسماسرة الخبراء في معرفة جودة التمباك، ووضع السعر المناسب، فكلما كانت رائحة التمباك قوية وشديدة السخونة على الأنف كان التمباك أعلى جودة، ويقولون عليه: قَرَنقش صَرّ، أي قرنقش صافي غير مخلوط بالكدو أو الفندي، فيأخذ الأب ما تحصَّل عليه من المال بعد بيع التمباك، ويشتري له ولأبنائه وزوجته ما يحتاجون إليه من الهدايا،

والملابس، والمواد الغذائية التي تحتاجها الأسرة، ثم يعود إلى بيته، وتعم السعادة والفرحة ولذة الحياة البسيطة الجميلة.

عادةً وفي صباح كل يوم تصحو أمي باكرًا قبل الآخرين..

كان أبي معلمًا بمرحلة التعليم الأساسي وأمي ربة منزل تقوم برعايتنا، وتقوم ببعض الأعمال المنزلية، وكانت عائلتي ميسورة الحال نسبة لما يمتلكه والدي من الأراضي الزراعية، وبحكم وظيفته كانت حياتنا طبيعية جدًّا.. في كل يوم عادةً ما تصحو أمي باكرًا قبل الآخرين، وبعد أن تصلي صلاة الصبح تذهب إلى الزريبة بالقرب من منزلنا وتجلب الحليب من الأغنام، وتوجد في الزريبة الخاصة ببهائم العائلة أنواع كثيرة من البهائم، ولكن أمي تفضل لبن الأغنام، وتأتي لتوقد النار من الأخشاب.. حطب العُشُر التي كانت متوفرة في منطقتنا، فلم تتوفر لدينا الوسائل الحديثة لمواقد الغاز، ولم تدخل منطقتنا، ولم نسمع بها، فتقوم أمي بغلي الحليب،

وتضع له بعض السمنة والعسل، تقول إن هذا الخليط سوف يفيدنا في صحتنا ويجعلنا أقوياء، وعندما نحتسي الحليب تقوم بتجهيزنا إلى المدرسة أنا وإخواني الثلاثة.. سيد وسعيد توأم بالمرحلة الابتدائية، وخالد الصغير عمره لم يصل إلى سن التعليم بعد، وأنا أكبرهم عمرًا، كنت أبلغ آنذاك السبعة عشر عامًا من عمري، وقد بلغت الحُلُم حينها.

بعد أن نشرب الحليب تقوم أمي بتجهيز ملابسنا وكتبنا، ونخرج نحن الثلاثة إلى المدرسة، وكانت المدرسة بعيدة نوعًا ما، لكننا نذهب راجلين، وأحيانًا نركب الحمار، ولم يكن هنالك وجبات في المدرسة، فعندما يضرب الجرس لفسحة الإفطار التي كانت مدتها ساعة نعود إلى المنزل، فنجد أمي قد جهزت لنا الفطور، وهو عادة ما تكون عصيدة مع (الرغيدة) وهي عبارة عن حليب مع بعض الإضافات من السمن البلدي والعسل أيضًا.

والعصيدة هي عجينة تُصنع من دقيق الدخن توضع على النار حتى تنضج وتتماسك، وكانت العصيدة هي الوجبة الأساسية لسكان المنطقة، وربما لإقليم دارفور عامةً وبعض مناطق السودان.

وبعد أن نتناول الفطور نعود إلى المدرسة لإكمال يومنا الدراسي قبل أن نتأخر، وإلا سوف يتم معاقبتنا جميعًا بالجلد قبل الدخول إلى المدرسة.

وعندما نعود إلى المنزل بعد نهاية اليوم الدراسي نجد أمي قد جلبت الماء من البئر، وكنا في فصل الخريف، حيث تكثر فيه أنواع الخضراوات، فتجدها قد ذهبت إلى الوادي أو طرف المنطقة، أو كما نسميها (قعر الحِلَّة) بكسر الحاء وفتح اللام، وأحضرت بعض الخضرة، وطبخت لنا الملوخية مع الكسرة، وهذه الأكلة أنا أحبها كثيرًا، فكانت أمي عندما آتي تناديني بلقبي المفضل عندها، وتقول لي: أزرقين.. الليلة

ترا سويت ليك ملاح خضرة بسمن يا وليدي.

تتحدث بلهجتنا البسيطة، وتعني أنها طبخت ملوخية بالسمن، وتعرف أنني أحبها، ولذلك تبشرني عند قدومي إلى المنزل، فتضع لنا الغداء ونذهب أنا وأبي وإخواني إلى جدي عند ديوانه، وتناوُل الطعام والشاي.

كنت من أكثر الأشخاص الأقرب إلي قلب جدي..

كان جدي عمدة المحلية، وكان يتمتع بنفوذ محلي كبير، ويملك من الأراضي ما يجعله يستطيع أن يمنح للذين لا يملكون الأراضي والسكان الجدد والمتزوجين ما يمكِّنهم من العيش بسلام، فكان المواطنون يحترمونه، ودائمًا ما تجده في الراكوبة أو المجلس جالسًا مع كبار المنطقة، يتفاكرون في حل المشاكل التي يقع فيها بعض أفراد المنطقة أو المشاكل التي تحدث بين العائلات الكبيرة في المنطقة قبل أن تصل للحكومة، ويتم حلها وديًّا بما يسمى بالجودية.

كنت محبوبًا عند جدي، ودائمًا ما أكون بجواره في جلساته، ويحرص على اصطحابي معه دائمًا، وكان الناس يحترمونني كأنني مثلهم في العمر، ويقولون عني ابن العمدة، فكنت في صغري لا أعير أي اهتمام لهذه الكلمات، ولكن عندما تفتحت للدنيا عرفت من أكون، فكنت أستمتع بهذه الكلمات.

أشعر أنني متميز من الآخرين، وكان جدي يقول لي دائمًا أنك سوف تصبح من أصحاب الرأي، وسيكون لك كلمة، وكان يصطحبني معه في كل الأماكن.

كان لديه حصان أبيض أصيل لا أحد يقترب منه، حتى أبي لا يستطيع أن يذهب به إلى أي مكان لأن جدي لا يسمح بذلك، ولكن كان لا يرفض لي بأي شيء أرغب به، فقد حرص على تعليمي ركوب الخيل، وكان يشعر بالسعادة عندما أركب حصانه، وأخرج به في المساء، وأتسابق به في

الوادي.

كنت أحب جدي كثيرًا، وعائلتي كانت جميلة، وكنت حقًّا سعيدًا.

كنت طالبًا مثاليًّا، وابنًا بارًّا، وأخًا حنونًا، كنت أهتم بدراستي وصلواتي في وقتها، وكنت دائمًا في المرتبة الأولى على دفعتي، فكان الأهل يسعدون برؤيتي، ويفتخرون بي، وكانت تأتيني الهدايا في كل أجازة العام ونصف العام.

كنت لا أكترث لهوى الشباب وهوسهم، ودائمًا ما أرى نفسي قدوة للآخرين، وربما هذه النظرة قد أرهقتني وجعلتني أعيش في مسؤولية وعمر أكبر مني، ولم أكن سعيدًا بهذا الوضع، فجميع الشباب في عمري لديهم ما يقضون فيه وقت فراغهم من لعب وكل الوسائل الأخرى، وكانوا يعيشون حياتهم بكل واقعية.. لكنني غير ذلك.

كأنها أُرسِلَت لتأخذني معها، فتخلَّت عن جسدي واكتفت بأخذ قلبي وعقلي وتفكيري..

استمر الحال على هذا النحو حتى رأيتها.. رأيتها وقد تغيَّر كل شيء.. تغيَّر طبعي، تغيَّرت نظرتي للحياة.. رغبت حقًّا أن أتغيَّر وكنت سعيدًا بهذا التغيير.

تلك السمراء أذهلتني، وأخرجت كل ما بداخلي من مشاعر، تدغدغ كل ما بداخلي من حواس وإحساس، إنها المرة الأولى.. قابلتها فعشقتها.

نعم.. عشقتها دون مقدمات، توغلت إلى داخلي كأنها كانت تنتظر رؤيتي أو كنت أنتظر لقاءها أنا، فلا أدري.. ما الذي أصابني؟! وبقيت أنظر إليها حتى اختفت، وبقيت واقفًا في مكاني، ونفسي تراودني أن ألحق بها، ولكن لا أدري

ما الذي استوقفني...

كانت سمراء ناعمة، ذات جسم جميل مثير، وقد اكتملت عندها كل صفات الجمال البدوي الذي ما زلت أعشقه وأعشق تفاصيلها البريئة.. عينيها واسعتان مكحلتان كعيون المها.. ذات حياء.. تمشي على استحياء، كأنها أُرسِلَتْ لتأخذني معها، ولكن تخلَّت عن جسدي، واكتفت بأخذ قلبي، وعقلي، وتفكيري، فحقًّا إنها ملاك.

مكثت بعض الوقت، جَمَّعَتْ فيه ما تبقى لي من قوة وتماسكت، وعدت إلى المنزل وعقلي لا يفكر بشيء غيرها، دخلت المنزل دون أن ألقي السلام على أمي وإخوتي، ذهبت إلي غرفتي القطية -وهي غرفة كبيرة أو صغيرة تُبنى من القصب على شكل دائري مُغطاة من الأعلى على شكل قِمَمي- التي تقع بالقرب من بوابة المنزل، من عاداتنا أن تكون غرفة الأولاد على الواجهة عند المدخل، فأحست

أمي بشيء غريب في سلوكي، فأتت إليَّ ووقفت بجانب الباب من الخارج، ونادتني:

– أزرقين.. أزرقين! مالك يا وليدي؟ إن شاء الله عافي!، كانت تسأل ما إذا كنت بخير أم لا لأنها قد لاحظت شيء ما تغيَّر في طبعي.

أجبتها: – نعم أمي، أنا بخير، فقط أشعر بصداع خفيف.

فقالت: – بكون سببه الشاي، إنتَ من شاي الصباح تاني ما رجعت البيت، لكن هسة نعمل ليك كوباية شاي تقيل يا وليدي وتبقى خير. أي أن سبب الصداع هو عدم شربي للشاي منذ الصباح.

أجبتها: – تمام أمي.

فذهبت لتحضر لي كوب الشاي، وأنا غارق في خيال تلك الحسناء.. كنت أنظر إلى سقف الغرفة وأبتسم.

أحضرت أمي كوب الشاي، وجلست عند مدخل الغرفة تتحدث وتستمع إليَّ، إلى أن شربت الشاي، فطلبت منِّي أن أنام وأرتاح قليلًا. بعد ذلك كنت أنتظر الصباح لكي أذهب وأراها مرةً أخرى.

مرَّت هذه الليلة على هذا النحو إلى أن أتى الصباح، فكنت أنتظره بلهفة وشوق.. وليل العاشقين طويل.

صحوت مبكرًا على غير العادة، فقالت لي أمي أنني صحوت باكرًا لأنني نمت مبكرًا. خرجت أنا وإخوتي للذهاب إلى المدرسة، ولكن شيء ما يراودني أن أذهب لأراها، فأوصلتُ إخوتي إلى المدرسة، ونسيت مدرستي، وذهبت إلى ذاك المكان الذي رأيتها فيه بالأمس، وكنت أنتظر رؤيتها، كانت تبدو لي أنها تدرس في مدرسة البنات التي تبعد عن مدرستنا مسافة ليست ببعيدة.

علمًا بأن مدارسنا مفصولة تمامًا.. بنين وبنات، ولا توجد

مدرسة مختلطة إطلاقًا.

ذهبتُ وانتظرتها في نفس المكان، وكنت متشوقًا لرؤيتها، وبعد مرور بعض الوقت رأيتها ومعها اثنتين أخريين، لا أدري إن كانتا صديقاتها أم جمعهن الطريق!، ولكنها كانت مثل القمر وسط النجوم، كنت فقط أريد رؤيتها ولا أنتظر منها شيء لتبادلني إياه، فقط أريد رؤيتها، فنظرت لي مرة واحدة وواصلت طريقها، بقيت في مكاني تحت شجرة كبيرة حتى نهاية اليوم الدراسي، حتى جاءت! وهذه المرة كانت تنظر إليَّ باستغراب، لكنني لا أهتم، المهم أنها هنا أمامي، كنت عندما أراها أبتسم، فكانت تبدو لي هذه الحياة جميلة برؤيتها، كنت أشعر بنشاط وخفة في بدني عند رؤيتها، كنت أتساءل: ما هذا الشعور، ولماذا يحدث لي عند رؤيتها؟!

استمر الحال أكثر من أسبوع لم أذهب فيه إلى المدرسة، فجاءت شكوى إلى أبي في مدرسته بأنني تغيبت من المدرسة

لمدة أسبوع كامل، لم يأخذنا أبي للدراسة في مدرسته لأنها كانت بعيدة جدًّا عن قريتنا، وكان إخوتي لا يعرفون أنني أتغيب من المدرسة لأنهم في مدرسة التعليم الأساسي التي يفصلها عن مدرستنا الثانوية حائطًا صغيرًا، فهم في مدرسة دالي الأساسية وأنا في مدرسة دالي الثانوية في الصف الثاني الثانوي، وعندما عدت إلى المنزل وقبل أن أدخل غرفتي ناداني أبي:

- يا عثمان.. تعال يا عثمان!

وهذه هي المرة الأولى التي يتعامل فيها أبي معي بهذه النبرة، فخفتُ حقيقةً، ولكن أبي لم يتعامل معي بأسلوب صعب قط.

قال لي أنه جاءته شكوى من المدرسة أنَّ لديَّ أسبوع لم أذهب فيه إلى المدرسة، فقلت له:

- نعم لم أذهب، ولكني سوف أذهب غدًا.

لم يُكثر من الحديث معي، ولكن قال لي أن ألتزم وأهتم بدراستي لأنه يريدني إنسان ناجح، وأن هذا أفضل كثيرًا بالنسبة لي، ووضع يده على رأسي، وربت على كتفي، وذهب.

في اليوم التالي أتى الصباح، وكالعادة أوصل إخوتي إلى المدرسة وأذهب لرؤية تلك السمراء التي برونقها وعبقها أخجلت كل معاني البياض.

ذهبت وكان الوضع قد اختلف، فكانت هذه المرة تشير إليَّ بيدها وتلوح لي بالسلام، لم أصدق ما حدث، كنت مذهولًا، فانتظرتها حتى نهاية اليوم الدراسي، ولكن كل شيء قد تغير عندما أتت إليَّ، فكان يظهر على وجهها الخوف والخجل، وقفت على مسافة مني، وقالت لي:

-السلام عليكم.

وأنا بكل شغف أجبت:

-وعليكم السلام.

قالت: شايفاك يوميًّا تقف هنا وتعاين لي، إن شاء الله خير؟ أي أريد أن أعرف ما قصتك، دائمًا ما أجدك تقف في هذا المكان وتنظر إلي.. هل هناك شيء ما؟

فحكوتُ لها قصة إعجابي بها، وأنني عشقتها منذ أن رأيتها، وأنني آتي كل يوم وأقف هنا لرؤيتها فقط. احمرَّ خدَّيها خجلًا، وابتسمت ابتسامة جعلت قلبي يخفق بسرعة، أو أنه يريد أن يغادر قفصي الصدري، ربما لم أستطع أن أتمالك نفسي، وبعدها استدارت وأرادت الذهاب، فقلت لها:

- أرجوكِ انتظري دقيقة، اسمك منو؟

قالت: - اسمي ميمونة، وإنتَ اسمك منو؟ بلهجتنا

السودانية.

قلت لها: – اسمك جميل، وأنا اسمي عثمان.

كانت لا تستطيع الوقوف.. من حيائها غطت وجهها بطرحتها خجلًا، وذهبت دون أن تقول أي شيء.

عدت إلى المنزل وأنا أشعر كأنني أسعد إنسان في العالم، وأبي عرف أنني لم أذهب إلى المدرسة أيضًا، ولكنه لم يسألني هذه المرة.

استمر الحال على هذا النحو إلى أن حدث شيءٌ لم يكن في الحسبان.. كما كان معتاد بالنسبة لي في كل يوم أوصل إخوتي إلى المدرسة وأخرج أنا خُفيةً، وأذهب لها وأنتظرها تحت تلك الشجرة.. أتابع خروج الفتيات من المدرسة، وعند خروجهن أذهب وأقف في المكان المعتاد لأراها، وفي ذلك اليوم تركت إخوتي يذهبون إلى المدرسة، وأنا تغيبت

بعد أن قلت لهم أنني نسيت إحدى أدواتي المدرسية وعليَّ أن أعود إلى البيت، وسوف ألحق بهم، ويمكنهم الذهاب مع بقية الأولاد.

وبعد أن ذهبوا بعيدًا وتأكدت أنهم لا ينتبهون لي، ذهبت وانتظرتها حتى جاءت، وهذه كانت المرة الأولى التي التقيتها فيها عند الصباح، وقد تجاذبنا بعض أطراف الحديث، وقالت لي أنها تدرس في الصف الأول الثانوي، لكنها تأخرت، فأسرعت إلى الذهاب وتركتني، ولكن تواعدنا أن نلتقي بنهاية الدوام، فجلست تحت الشجرة التي أسميتها شجرة الحب.

كانت هذه الشجرة ينام فيها حسنين في النهار بعد أن يذهب ويسكر، وهو أحد السكارى المعروفون في المنطقة، ومشهور بقصصه المضحكة، كان دائمًا يرتدي عراقي أو جلابية ممزقة، وسروال (تِكَة) قد تغير لونهم من كثرة

اللبس، وشعره طويل وملفوف ومتسخ، ويحمل دائمًا عصا خيزران يضعه تحت إبطه ويتجول في شوارع القرية، وهو معروف بمعاكسته للنساء والفتيات.

يقال أنه كان إنسانًا سويًّا، ماتت محبوبته ولم يتحمل الصدمة، فأصبح بهذا الشكل. فكنت أجلس معه فترة النهار وأنا أنتظر خروج ميمونة من المدرسة، وهو يحكي لي قصصه مع النساء، وأحيانًا عن مغامراته الكاذبة، وفي نهاية الدوام خرجت من المدرسة، وجاءت إليَّ ووجدتني أنتظرها.

تحركنا مع بعض ونحن نتحدث، أو أتحدث أنا إن صح التعبير عن مشاعري، وكم كنت أتمناها وكنت أتغزل فيها، وهي بين الحياء والخجل، وبينما نحن في طريقنا التفتُّ إلى يميني فوجدت أبي ينظر إليَّ، وعندما رأيته صرخ في وجهي قائلًا:

- دا شنو يا عثمان؟ إنتَ عايز تضيع مستقبلك في هذه التفاهات دي وبقيت تباري البنات؟؟ (أي هل ترغب في ضياع مستقبلك؟).

وعندما سَمِعَتْ صوت أبي كان البكاء يغمرها، فذهبت عني مسرعة، وأخذني أبي معه إلى البيت، فوبخني وقال لي:

- من اليوم فصاعدًا سوف أوصلك بنفسي إلى المدرسة، وبعد فترة اكتشفت أن حسنين هو من أخبر أبي بكل شيء.

كنت لا أبالي بتوبيخه لي، وكان كل ما يهمني أن أعرف أنها بخير، وهل ستتحدث معي مرة أخرى أم لا؟ وأحسست أن قلبي يتقطع، فبكيت حزنًا.

جاء الصباح، وأخذنا أبي إلى المدرسة كما وعدني، ولكنني لم أكن منتبهًا إلى الدرس، وتفكيري كان يدور في كيفية الهروب من المدرسة، وعند فسحة الإفطار ذهبت

وانتظرتها، وكانت لا تريد رؤيتي، لكني ألححتُ عليها، وتحدثت معها عن كيف يمكننا اللقاء بعيدًا عن المدرسة، فقالت لي أنها دائمًا ما تخرج للمذاكرة بالقرب من المنطقة، خلف دبة حسنين.

اتفقنا أن نلتقي هناك، وعند عودتي وجدت حسنين، وعندما رآني صار يضحك، وقال لي بطريقة ساخرة:

-واااا كشفوك (أي تم كشف أفعالك) هههههه. واضعًا سفة صاعوط كبيرة تحت شفتيه، وكان لا يستطيع التحكم في لعابه وأصبح يسيل على لحيته باللون البني كالقهوة، لأن اللعاب أو البصاق قد اختلط بالتمباك أو السفة الكبيرة.

- وأنا اللي قلت لأبوك عن عمايلك (أي أخبرت والدك). وهو مستمر في ضحكته ساخرًا حتى وقع على الأرض، وعندما رأيته يضحك بهذه الطريقة صرت أضحك أنا أيضًا معه وتجاهلت ما حدث منه.. أنا أحببته على كل حال.

ذهبت إلى البيت وخرجت في المساء إلى المنطقة التي اتفقنا عليها، وهو مكان ما جوار الوادي خلف تل كبير يسمى دبة حسنين، فيه شيء من الطبيعة والهدوء النسبي مما يجعله مناسبًا للقاءات الرومانسية والدراسة أيضًا، ودائمًا ما تجد حسنين متكئًا على أحد جانبيه في أوقات العصر وهو ينظر للناس، ومنهم من كان يمسك بكتابه، ومنهم من كان جالسًا مع محبوبته، وهو يصور المشهد ويضحك، ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن شباب المنطقة، فإذا أردت معلومة عن أي شخص ما عليك إلا أن تسأل حسنين فقط، كان دائمًا يرانا أنا وميمونتي بعد نهاية اليوم الدراسي، فيأتي ويحكي القصة لشباب المنطقة عندما يجتمعون عنده في الليل عند الدبة.

وصلت المكان، فوجدتها جالسة وفي يدها كتاب، كنت أنظر إليها وكأنها أميرة، وعندما رأتني تبسمت وقالت أنها

كانت تنتظرني بشغف.

جلسنا وتبادلنا الأشواق، وفي الواقع أنا أملك شيئًا من الوسامة.. قوامي وطولي مناسبين، وشاب مكتمل الصفات، وفي جلستنا هذه اعترفت لي بحبها أيضًا وأنها كانت معجبة بي، وفي هذه اللحظة كانت السعادة تغمرني بأنني تحصلت على قلب من أحببت.

توالت اللقاءات يوميًّا وفي كل مرة نزداد حُبًّا، وذات مرة احتضنتها، فأحسست بأن أنفاسها تتسارع، فقبلتها قبلة لن أنساها ما حييت، كانت القبلة الأولى في حياتي، قد أدمنت طعم شفتيها وأنفاسها، فأنا حقًّا عشقتها.

ذات مرة اكتشفت أن حسنين كان يرى ما نفعله أنا وميمونتي عندما نكون جالسين على طرف الوادي، ويحكي للآخرين عنا عندما يجلس معهم، وعندما يراني يضحك ويقول لي:

-أها.. الزولة أخبارها شنو؟

والزولة كلمة سودانية ويقصد بها الأنثى والمذكر منها زول، وهو يقصد ميمونة، فأجيبه:

- بخير.

فقال لي: - امشي وأقول لأبهاتكم (آبائكم) القاعدين تعملوه (تفعلونه) في الوادي دا؟

فقلت له: - حسنين.. إنتَ زول صاحبي، ما تعمل كدا أرجوك، خلي عوارتك دي.

فضحك وقال لي: - طيب تمام، لكن تاني ما يحصل الكلام دا.

وفي الحقيقة ضحكته كانت غريبة ومستفزة ومضحكة في نفس الوقت، فهو لا يملك الأسنان الأمامية في أعلى الفك، فعندما تراه يضحك بطريقته المعهودة لا تستطيع أن

تتمالك نفسك من الضحك، وتضحك لضحكته، أنا أحبه في الحقيقة.

استمرت علاقتنا، وكنا سعيدَيْن كل السعادة، وكانت دائمًا تنصحني أن أهتم بدراستي، وأنها تريد أن تراني ناجحًا، فالتزمت وأصبحت أفضل مما كنت.

كانت ميمونة من أسرة غنية، والدها من أشهر تجار التمباك في منطقة طويلة، وعائلتها من أشهر العائلات في المنطقة، وعندما علم والدها بعلاقتنا تغيَّر كل شيء، وأراد لها أن تنهي العام الدراسي بأسرع وقت لكي يرسلها إلى مدينة أخرى، مدينة نيالا؛ لتكمل دراستها هناك سعيًا منه بإبعادها عني، وكان السبب الحقيقي في مستقبلها وعمرها وليس سببًا آخر، مع أنها من قبيلة ليست قبيلتي، وحتى والداي، سبب رفضهما للعلاقة فقط لأنهم يرون أنني في عمر صغير وأن مستقبلي أهم من كل شيء، وهذا دليل على

أن منطقتنا معافاة تمامًا من القبلية والجهوية والتمييز بكل أنواعه، فكنا إنسانيون بالفطرة، وعندما أخبرتني بهذا الخبر كنت في غاية الانهيار النفسي والبدني والذهني، فتحدثت مع أبي بأنني أريد الزواج منها، فكان رده بالمنع القاطع، ووبخني توبيخًا شديدًا، وقال لي أيضًا أنني بعد أن أنهي هذا العام سيرسلني إلى عمي في مدينة أخرى لأواصل تعليمي هناك، وكانت لدي معلومة بأن عمي يسكن في نفس المدينة التي سوف تذهب إليها ميمونتي، فما فرحت قط مثل فرحتي بهذا الخبر.

فذهبت لرؤيتها، وعندما التقيتها وجدتها منهارة، وتظهر على وجهها علامات سوداء تحت العين تدل على كثرة البكاء والسهر، ناديتها ميمونتي كما تحب أن أناديها بهذا الاسم، أجابت بصوت خافض:

– نعم، ثم قالت لي: حبيبي، أنا ما تمام. (تعني أنها ليست

بخير).

كانت الدموع تتدفق على خديها الناعمتان، فأحسست حينها أن قلبي يتقطع من هذا المنظر، فأنا لا أستطيع أن أراها تذرف دمعة واحدة من شدة حبي لها، قلت لها:

- عندي ليكِ بشارة يا ميمونتي. (أي عندي لك خبر جميل)، فقالت:

- قولو (قُلْهُ).. يمكن تخفف عليَّ (عسى أن تخفف عني حزني هذا).

فقلت: - أكيد حبيبتي، لأنه خبر حلو (نعم سيخفف عنك بالتأكيد، بل سيسعدك أيضًا).

قالت: قول يلا سريع (قُلْهُ إذًا). وكانت متشوقة لسماعه، فأخبرتها أن أبي بعد أن صارحته بأنني أريد الزواج منها غضب وقرر إرسالي إلى عمي في مدينة أخرى، ولكن لا

يدري أن أباك يريد إرسالك إلى نفس المدينة أيضًا.

فقالت : - جاادي؟ أنا ما مصدقة. (أأنتَ جاد.. أنا لا أصدق).

قالت بدهشة، ثم جرت إليَّ واحتضنتني والدموع تنزل علي خدَّيها، ولكن هذه المرة اختلفت وأصبحت دموع الفرح، ثم استدارت ومسحت دموعها، وقالت:

- الحمد لله.. الحمد لله.

ثم مكثنا قليلًا وتفاكرنا في مشوارنا القادم، وكيف تبدو حياتنا هناك، وكنا سعداء إلى حد بعيد، وعن أن ربما مكتوب لنا أن نكون مع بعض ولبعض، والذي حدث ليس محض صدفة وإنما مباركة من الله سبحانه وتعالى.

الحسود ما حضر..

بعد مرور فترة أنهينا العام الدراسي ولم تُعلن النتائج بعد، تأخرت النتائج هذا العام كغير العادة، وكانت أيام قليلة وتفصلنا عن عيد الأضحى المبارك، والذي قرر فيه أبي أن يرسلني إلى مدينة نيالا بعد العيد بثلاثة أيام فقط.

مدينة نيالا هي مدينة تقع في جنوب دارفور، وهي عاصمة اقتصادية وميناء السودان الغربي، وهي مدينة جميلة ومتحضرة، وكنت حقًّا أريد زيارتها من قبل.

أتي العيد، واكتملت المراسم، وذُبِحت الأضحية، وكان جدي يملك من الماشية والضأن ما يقارب ال٣٠٠٠ رأس، وبالإضافة إلى عدد من الأبقار والإبل، فكان يضحي على مدار الثلاثة أيام، وكان الزوار يأتون من كل المناطق لمعايدة

جدي، وعندما يأتون إلينا كانوا يحملون معهم الخرفان والهدايا لجدي، فكانوا يذبحون الخرفان ويسلخونهم.

هم عدد كبير من الرجال، يقولون أنهم أقربائي وينادونني بولد عمدتنا، ولكنني لا أعرفهم.

بعد الذبح يأخذون الكبد من كل خروف والمرارة وأيضًا بعض من مكونات بطن الخروف ويتم تقطيعهم معًا، ويضاف إليها الليمون والبصل وبعض من زبدة الفول السوداني (الدكوة) والمرارة من نفس الذبيحة، وتؤكل نيًّا غير ناضجة، ومباشرة بعد الذبح والسلخ كانوا يقولون:

- يلا يا جماعة (الحسود ما حضر). يعني أن الشخص الذي لم يحضر هذه الأكلة بعد الذبح يسمي بالحسود.

وسمعت أحدهم يقول: يا جماعة، تاكلوا وتخلو ود العمدة معقولة؟ أي لِمَ تأكلون دون مناداة ابن العمدة؟

فقال: - تعال يا كنجارة (وكنجارة هذا لقب جدي الذي يدل على القوة والشدة) ثم أصبح الآخرين يطلقون عليَّ هذا اللقب، ويقولون لي عثمان كنجارة على اسم جدي .

جئت وجلست معهم وأكلت من الحسود ما حضر، وفي الحقيقة كانت جميلة وغريبة في نفس الوقت نظرًا لعدم وضعها على النار إطلاقًا.

كان دائمًا وفي كل عيد على مدار الثلاثة أيام تكون هنالك مراسم واحتفالات مصاحبة، فكان الناس في مساء كل يوم من أيام العيد يذهبون إلى ساحة القرية، الرجال والنساء والشباب، يسمونها ميدان الحِلَّة، فتجتمع الناس للاحتفالات والرقص، وبعض الألعاب والمسابقات في الجري، ولعب الكرة، ولعبة الكراسي... وغيرها، ولكن أبرز هذه المناسبات أو المراسم هي لعبة (الجوري)، وهي لعبة مشهورة ليست على مستوى المنطقة فقط، ولكن على

عموم دارفور، فتجتمع الأولاد على جهة ما والبنات في الاتجاه الآخر، فيدخل أحد الشباب وهو يقفز إلى الأعلى، ثم يشير إلى إحداهن، فتعرف أنها المقصودة، فتخرج وترقص معه، وبقية الشباب لديهم أغاني وأهازيج خاصة يقولونها أثناء اللعبة، وكانت ميمونة هي أيضًا موجودة، فكنت أنظر لها بكل حب، وكانت تنظر إليَّ وتبتسم، فدخلت اللعبة ولاعبتها، ثم بعد ذلك أخذتها وجلسنا بعيدًا نتابع بقية النشاطات الأخرى، كان بقية الشباب غاضبين لأنني لم أتركها ترقص معهم لأنها كانت أجمل الفتيات في المنطقة وكل الشباب يتمنونها، فكنت أغار عليها، ولم أسمح لها أن ترقص مع غيري .

وفي الليل يجتمع مشايخ وكبار المنطقة ويأتون الناس إلى ساحة المسجد الكبير، حيث المراسم الروحانية من ذكر ووعظ وتلاوة القرآن، فكان مجتمعٌ متصوفًا تظهر فيه كل

مظاهر الأدب الصوفي من مكارم الأخلاق، وتنتشر فيه مجالس الذكر، وكنت من أسرة صوفية، فكان أبي يأخذني معه إلى مكان الذكر (الزاوية) وهو دار للذكر في ليلة الخميس والأحد، نرتدي فيها الجلابية والطاقية (القبعة) البرتقالية، وكانت هذه الجلسات تأخذني بعيدًا، وكنت أحس فيها بالطمأنينة فأدمنتها، وكان نظام الذكر بأن يقف الرجال في صفين ويتمايلون على إيقاعات المديح، ويذكرون فيها اسم الله، وتجلس النساء بعيدًا، فكانت لحظات روحانية فريدة.

كنت أحب المديح، وكان أبي مدَّاحًا وصوته جميل، وكنت وما زلت أحفظ الكثير من القصائد. كان حسنين دائمًا ما تجده حاضرًا في أيام الذكر، يأتي وهو ثملًا يقف في منتصف الذكر ويتمايل، لا أحد يسأله أو يخرجه، ويتركونه على حالته حتى ينام وهو يتمايل ويصحو عند انتهاء الذكر مباشرة، وكان يمازح أبي ويضحك معه .

دبة حسنين..

في إحدى ضواحي القرية من الناحية الشمالية توجد امرأة تدعى تُسَة (بضم التاء وفتح السين) قد تطرفت عن سكان القرية أو في الحقيقة أخرجوها منها، وقاموا ببناء بيت كبير لها من القش أو القصب به حوش كبير، وراكوبة في الوسط، وغرفتين في الزوايا اليمنى واليسرى (قطيتين) على التل الشمالي من المنطقة.

كانت امرأة في سن الخمسين من عمرها، وهي كبيرة الحجم وطويلة، كانت تهابها الأمهات لأنها كثيرة المشاكل وشديدة الضرب، كانت نساء القرية يسمونها تُسَتين (مثنى تُسَة) لكبر حجمها، كانت تسكن في وسط القرية، وهي فدادية أو إندايه، وتمارس صناعة الخمر البلدي (المريسة والعرقي أو العرق)، تسمى المرأة التي تصنع الخمر بالإندايه

أو الفدادية، والمريسة عادة ما تصنع من الذرة أو الدخن، ويقولون إنها مفيدة للصحة وتعطي طاقة لشاربها وقليل من السُّكْر، عكس العرقي الذي يُصنع من البلح، ويضاف إليه بعض الأعشاب مثل لبن العشر، وهو قليل الفائدة وعالي الخام، كما أنه يتسبب في الفشل الكبدي نسبةً للإضافات الغير منطقية التي تضاف له لزيادة جودة السُّكْر.

كانت مشهورة في جميع أنحاء المحلية، يأتونها السَّكارى من مناطق بعيدة بالجمال والخيول يوميًّا، يأخذون منها كميات كبيرة، وبعضهم يسكرون ويسببون الإزعاج داخل القرية، مما استدعى جدي لرجال القرية وقرروا أن يتم طردها خارج القرية، فاجتمعت الرجال بديوان جدي، وكانوا يتفاكرون في كيفية إخراجها، وكيف يتم مواجهتها، لأن رجال القرية كانوا خائفون من ردود فعلها إذا علمت أنهم يريدون إخراجها.

كنت جالسًا معهم أستمع لما يقولون، فاقترح بعضهم إخبارها أن تتوقف عن عمل الخمر دون إخراجها من القرية، وآخرون يصرون على أنها لن تفعل ذلك، والأفضل طردها من المنطقة بالقوة.

كانوا يتناقشون بين مؤيد ومعارض لفكرة طردها من القرية، ولكنهم متفقون على أن ممارسة هذا العمل تضر بالمجتمع، واستقر بهم الحال بإعطائها منطقة بعيدة نوعًا ما عن القرية، منطقة تقع في مكان عالٍ من الناحية الشمالية للقرية تسمى دبة حسنين، والدبة اسم يطلق على المنطقة العالية أو التل، وحسنين كان من أقدم الزبائن الذين يسكرون عند تُسَة ويذهب بعد الشرب دائمًا، يجلس أو يتكئ على أحد جانبيه على تلك الرمال في وقت العصاري، فاشتهرت الدبة باسمه، وكانت قديمًا تسمى دبة البئر.

كانت دبة حسنين مكان الترويح عن النفس والترفيه،

ففي بعض الأوقات تجد بعض الرجال عند الدبة مجتمعين مع بعضهم يتناقشون ويتفاخرون بحصاد موسمهم الزراعي، وآخرون يلعبون الدالة (والدالة لعبة مشهورة في المنطقة، يتم عمل حفر صغيرة على الأرض ورص بعض الأحجار، ويتم تحريكها حسب قواعد اللعبة).

في الليل يحضر الأطفال، ويلعبون ألعابهم المختلفة مثل الحكو، والغميضة، والعديد من الألعاب على ضوء القمر، وفي ناحية أخرى تجد حسنين وحوله العديد من الشباب يسمعون لحكاياته وقصصه الوقحة مع النساء، وأصبح أهل القرية يسمونها دبة حسنين، فكانت منطقة جميلة جدًّا.

بعد النقاش الطويل تم اختيار أربعة من رجال المجلس والذين لهم الكلمة المسموعة في المجتمع، وترأسهم جدي؛ ليذهبوا ويخبروها بأن ترحل عن المنطقة، ويعطونها مكان لبناء بيتٍ، ويمكنها ممارسة عملها في مكان بعيد عن القرية،

كانت تُسَة وبالرغم من أفعالها إلا أنها تُكِن احترامًا كبيرًا لجدي، وتناديه بأبونا، أي أبانا، فلما أتوا إليها في المنزل كانت تجلس في وسط الراكوبة وبجوارها رجال توزع لهم الخمر بالكأس، وبعضهم قد سكر ولا يستطيع المشي، وبعضهم من كان نائمًا على ظهره تحت الشمس لا يستطيع الحركة، ومنهم من كان يمد كأسه ويطلب منها المزيد، وهي تقول:

- ما عندي كفاية، دا بس.

وكانت تلبس الجلباب، وشعرها مكشوف، وهيئتها لم تكن جميلة، فلما دخلوا الرجال وألقوا السلام قام بعض السَّكارى بالضحك مستغربين من كلمة السلام عليكم، لأن من العرف عند السَّكارى عند الدخول لبيت السُّكر لا ترمي تحية الإسلام، فلما رفعوا رأسهم وانتبهوا أنه جدي أو عمدة القرية الكل كان متوترًا عدا بعض الذين قد وصلوا لحد الثمالة، والذين يأتون من مناطق بعيدة لم يعرفوا من هو

هذا الرجل.

قامت تُسَة مسرعة بتعديل هيئتها وارتداء ثوبها كاملًا احترامًا لجدي، وكانت تقول:

- اتفضل يا أبونا، اتفضل.

قامت بإحضار البنبر الذي كانت تجلس عليه وأحضرته إلى جدي وطلبت منه أن يجلس عليه، والبنبر هو مقعد خشبي على أربعة أرجل تصنع من الجلد يستخدم للجلوس، ثم قالت:

- اتفضل اقعد يا عمدة، ما قلت لي إنك جاي.. فاجأتني يا عمدة.

أي أنه لم يخبرها بقدومه، وأنها تفاجأت، وإلا كانت تُجهز نفسها لاستقباله.

سمع أحد الرجال الذين كانوا يشربون الخمر باسم

عمدة، فضحك بطريقة غريبة ومستفزة قائلًا:

- العمدة ذاته جاي يسكر معانا هههههه.

فقامت تُسَة بشتمه:

- اسكت يا سكَّاري يا وسخ، دا عمدة القرية اعمل حسابك. أي أحسِن التصرف مع العمدة.

فسكت الرجل، وقال لها جدي:

- شكرًا يا تُسَة، ونحن نعتذر على المجيء دون موعد، ولكن جئناكِ في أمر ضروري، فقالت تُسَة:

- خير يا عمدة في شنو؟

قال لها جدي: - اجتمع رجال المنطقة، وقرروا إن حفاظًا على سمعة المنطقة، وحفاظًا على الشباب والمظهر العام أن يمنحوكِ مكانًا خارج القرية، (دبة حسنين) تستطيعين أن تُمارسي فيها عملك بُحرِّيَّة بعيدًا عن القرية.

فسكتت.. كانت غاضبة جدًّا، ولكن لا تستطيع أن ترد في وجه جدي، ثم قالت:

- طيب البنية لي منو؟ (أي من الذي يقوم ببناء البيت؟).

رد أحد الرجال: - إنتِ براكي تبنيه ما في زول بيبنيه ليكِ (أنتِ من تقومين ببنائه).

ثم انفجرت فيه تُسَة قائلة: - أنا ما سألتك، إنتَ قَفِّل خشمك دا، أنا بتكلم مع العمدة؛ إنتَ الحشَّر قَدومَك شنو؟ (اخرس، أنا لم أسألك إنتَ، فلماذا تجيب؟).

كان هذا الانفعال ناتج عن كتم الغيظ من كلام جدي لها، وأنها لا تستطيع أن ترد له كلمة، فوجدت فرصة التفريغ في وجه الرجل الآخر، فهمهم الرجل ثم قال بصوت منخفض:

- بتشوف الفيل وبتطعن ظله.

ثم قال لها جدي: – (اهدأي يا تُسَة ولا تقلقي، نحن من نقوم ببناء البيت، ويظل هذا البيت بيتك للسكن، ويمكن أن تأتي في أي وقت تريدين، ولكن لا تمارسين فيه هذه الأشياء.

فسكتت قليلًا ثم قالت بنفس بارد بعد أن أخرجت بعض الأنفاس الطويلة:

– تمام يا عمدة، خير إن شاء الله ،زي ما إنتَ تريد.

فشكرها جدي ثم ذهب.

بعد مرور أسبوع قرر جدي القيام ببناء المنزل لتُسَة، فدعى شباب القرية ورجالها لعمل نفير، والنفير هو عادة اجتماعية قديمة في دارفور ومعظم أنحاء السودان، عند حصد المحاصيل أو بناء البيوت أو أي نوع من أنواع التكافل يجتمع فيه أهل القرية أو المنطقة ويقومون بمساعدة شخص

ما من نفس المنطقة. فقاموا بتجهيز القصب والأخشاب بكميات وفيرة كانت تبرعات من أهل القرية.

جاءت تُسَة وقالت لهم: - ابنوا لي قطيتين وراكوبة جوة الحوش، والراكوبة تكون كبيرة.

كان جدي واقفًا، فضحك وقال لها: حاااااضر .

وفي اليوم الثاني بعد إحضار المُعِدَّات قام رجال القرية بجمع التبرعات مرة أخرى لإحضار مستلزمات النفير من الذبائح والأكل بصفة عامة، فأحضروا الخرفان والأبقار لذبحها وما يكفي ليومين أو ثلاث؛ لأن البناء قد يستغرق يومين على الأقل، وقد تبرعت تُسَة نفسها بخروفين وحلة كبيرة من المريسة وأخرى للعرقي، لأن معظم الذين يجيدون بناء القطاطي يسكرون وجميعهم زبائن عندها، فأرادت أن توفر لهم ما يريدون.

بدأ النفير في صباح يوم السبت والجميع كان متحمسًا للعمل، فقد تقسموا لمجموعات، مجموعة للطبخ وآخرون لضرب الطبول أو النقارة، والنقارة آلة تصنع عادة من الفخار أو الخشب في شكل أسطواني، تُغطى جانبيه بالجلد ويستخدم للرقص التراثي، وكانوا يتغنون بشكل حماسي، ويرددون أصوات غليظة مثل: - هب هب.. كب كب.. رب رب، وهم يحفرون الأرض. كنت أنا وجدي وبعض الرجال جالسين تحت شجرة اللالوب نتابع النفير، وكنت قد استمتعت بالمنظر، فقد كان حماسيًّا جدًّا.

جاء وقت الإفطار، واجتمع الناس في مجموعات، وتم توزيع الأطباق.. بها عصيدة ومن فوقها قطع صغيرة من اللحم والملاح في كأس، وبعد أكل اللحمة تأكل العصيدة بالملاح.

قام شمين (أشهر طباخي القرية) بوضع سفرة كبيرة بها

اللحم، وصحن صغير به شطة بالمرين أمام جدي، وقال: - اتفضل يا عمدة.

والمرين يصنع من الشطة والدكوة (زبدة الفول السوداني) وتضاف إليه بعض من مرارة الخروف أو البقرة وتؤكل معه اللحمة، وسمي مرين لكثرة مرارته أي أنه مرٌ مرتين.

استدرنا حول السفرة أنا وجدي ومعنا ثلاثة رجال، وكان جدي يعزل لي أفضل اللحم ويضعه أمامي، ويقول لي: - كُل يا أبو رويس (تصغير للرأس) ويضحك.. كان الموقف جميل.. لن أنساه أبدًا.

كانت تُسَة تجلس عند شجرة بالجانب الآخر وأمامها المريسة والعرقي، وبعد الإفطار ذهب عدد من الرجال الذين كانوا يعملون وجلسوا بجوارها، وكانت تصب لهم الخمر في كأس كبير يضعونه في الوسط، ويستخدمون كأس صغير يتداولون الشراب به في ما بينهم، ويتغنون بطريقة

غريبة نوعًا ما، ثم عادوا للعمل مرة أخرى، وكان الحماس متضاعفًا هذه المرة.

وعند نهاية اليوم أتى حسنين وقد وقف جانبًا واضعًا عصاه تحت إبطه، وأخرج كيس الصاعوط، وبدأ يخرج السفة؛ ليضعها على فمه، وهو ينظر لما يحدث مستغربًا؛ لأن الناس تبني بيتًا في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه في أوقات العصر، وكان ثملًا لا يستطيع الوقوف، فوضع يديه على رأسه مستغربًا، ثم قال:

– وأنا أقعد وين في المساء؟! أي أين أجلس في المساء بعد الآن. بصوتٍ عالٍ، فضحك الجميع، وقالوا له:

– تقعد في بيتك يا حسنين، المكان دا أصبح بيت لتُسَة.

فقال: – تُسَة! طيب.. ما دام البيت لتُسَة ما في مشكلة، ابنوه. وضحك هو أيضًا.

كان حسنين من أطيب رجال القرية، ويمتاز بالفكاهة، فكان دائمًا ما تجده يجلس مع شباب القرية تحت الشجرة في النهار أو في دبة حسنين ويحكي لهم قصصه المضحكة عن مواقفه الكاذبة مع الأسود والنمور ومغامراته مع النساء (قلة الأدب أو المَسَاخَة)، كان محبوبًا بالرغم من سلوكه الغير محترم حسب المعايير المحلية.

وبعد ثلاثة أيام اكتمل بناء المنزل، ورحلت تُسَة إلى منزلها الجديد، فأصبحت أكثر شهرة، وكثرت المشاكل والقتل في تلك المنطقة نسبة لانتشار السلاح في الآونة الأخيرة، والانفلات الأمني والحروب، وخاصة أيام الأعياد، حتى أتى اليوم الذي قتلت فيه تُسَة عن طريق الخطأ برصاصة طائشة من أحد الزبائن بعد شجاره مع أحد الرجال داخل منزلها، فأصابتها طلقة بالخطأ، فاختفت تُسَة وعمَّ الهدوء في القرية.

افتقدناها لأنها كانت تهدي الأطفال أشياءً جميلة في كل سبت عند مجيئها من السوق، وكان حسنين أشد حزنًا عليها، وعادت لنا دبة حسنين كما كانت.

فراق ميمونتي!

فقلت له: – لا يمكننا ذلك لأنهم كثيرون وقد تصيب أحدنا طلقة طائشة..

كان من المقرر إرسالي إلي مدينة نيالا في ثالث أيام العيد، وهذا يعني أنني أذهب قبل ميمونتي بيومين؛ لأنها قالت لي أن والدها سوف يسافر معها خامس أيام العيد الذي يقع يوم الاثنين من أيام الأسبوع، وأنا أسافر يوم السبت من نفس الأسبوع، فودعتها في تلك الليلة في ميدان السوق بعد أن قضينا يومًا جميلًا؛ لأنني متأكد أنها لا توجد فرصة أخرى للقائها بعد اليوم في طويلة، ولكن وعدتها أن نلتقي هناك، أصبحنا نتحدث عن كيف يمكننا مفارقة طويلة والعيش بعيدًا عن الأهل والأقارب، وكيف يمكننا تحمل أشواقنا. فقالت: – سوف نعود في العطلة الصيفية بالتأكيد لا تخف.

وأمسكت بيدي وقالت لي:

- سوف أشتاق إليك كثيرًا -والدموع تجري بغزارة من عينيها- أنا أحبك كثيرًا، وأريد منك أن تعتني بنفسك من أجلي، فأنا لا أستطيع العيش بدونك.

كانت تتحدث بصعوبة من كثرة البكاء، احتضنتها وكانت لا تريد مفارقتي، وأنا أيضًا، لكن تماسكنا قليلًا، وقلت لها: - إلى اللقاء، وأنا أحبك.

واستدارت لتذهب، وكانت تلتفت كل فترة حتى اختفت.. بقيت في مكاني وأنا جالس على طرف الوادي، فأحسست أنني سوف أفارق بلدتي قريبًا، فبكيت وكتبت هذه العبارات وأنا أبكي، ربما هذه الكلمات لم تكن شعرًا ولا نثرًا، ولكن شيء ما كُتِبَ بصدق المشاعر:

هذه البلدة لا تشبه غيرها

هنا لا يزعجني أحد

هنا الجميع يحبني

وأحبهم

الكبير والصغير

الرجال

وكذلك النساء

يبتسمون عند رؤيتي

يضحكون

هنا الجمع يحبني

الأساتذة يحبونني

هنا تأتي الهدايا في كل عام

ومجالس الرجال تناديني لأجلس معهم

وكذلك الشباب

هنا توجد أمي

منبع الحنان ومصدره

عندما أعود إلى بيتنا

إنه بيت كبير

حيث الدفء والأمان

هنا توجد أمي..

إنها نصفي

تدهشني كل صباح

بشراب الحياة

حليب السمنة والعسل

إنها أمي

هنا لا أكره شيء

وأحب كل شيء

وكل شيء يحبني

سماؤها

أرضها

تلالها

وديانها

أشجارها

أحب كل شيء

هنا أُسقى لبن الصباح

في جلسة

كأنها جنة

أمي وأبي

أشقائي معنا

نضحك ونفرح

هنا توجد أمي

هل أجد هناك في بلاد أخرى

دفء الحياة؟!

يلامس فؤادي

وهل قاطنوها أناس بُسطاء؟!

طيبون؟

لا يكثرون من الكلام والسؤال؟

عندما أجلس

وأنا حزين لفراق أحبتي

هل يفهمون طبعي؟

ويسألون عندما أسكت عن الكلام؟

يفهمون صمتي

مثل أمي؟!

هنا توجد أمي

يوجد أبي

الأمان لقلبي وروحي

عليَّ أن أبكي

وأكتب عن الحياة هنا

عن الألم

عن الذكريات

عن جدي

وجدتي المتوفية

هنا توجد أمي

وأبي

هنا توجد ذكريات ميمونتي

هنا أتواجد أنا

عدت إلى المنزل وكانت ليلة الخميس، وفي صباح الجمعة على عادتنا أن نجتمع أنا وأمي وأبي وإخوتي لشرب اللبن مع العسل، وأمي تجهز الفطور وملابس الصلاة لي ولوالدي لأننا نذهب إلى صلاة الجمعة في المسجد الكبير، وبعدها نعود؛ لنجهز للسفر يوم السبت بإذن الله، وكان منزلنا في منطقة مرتفعة تسمى الكركر، ارتفاعها نسبي، ويمكنك رؤية كل أرجاء المحلية من منزلنا.

فبينما نحن جالسون في وسط الحوش كان أبي يحكي لنا حكايات مضحكة تارةً وحزينة تارةً أخرى، وأمي جالسة بالقرب من النار تغلي لنا الحليب، فكنا ننتظره بلهفة، لكن أمي لم تكن سعيدة، وأراها تمسح دموعها بخُفية، فعرفت أنها تبكي لمفارقتي ولا تريدني أن أذهب، ولكنها لا تجادل أبي في أي قرار يتخذه، وأنا أيضًا كنت خائفًا من لحظة

وداعها، فكنت أتمنى لو أن الأمور لم تكن بهذه الطريقة، ويمكنني البقاء مع أمي وأبي وإخوتي.

بينما نحن جالسون فإذا بأصوات المدفع تدوي، وتليها أصوات الرصاص بالاتجاه الغربي من المحلية، فوقفنا ونظرنا تجاه هذه الأصوات فرأينا أناس بالآلاف، بعضهم في عربات عسكرية وآخرين بالدراجات البخارية، والبعض الآخر على ظهر الخيل والجمال، فكان المنظر مرعب إلى حد بعيد، فقال أبي لأمي:

- يا مريم، ادخلي مع العيال ديل جوة، ديل جنجويد. (أي هؤلاء هم الجنجويد).

وذهب أبي تجاه الباب، فصرخت أمي:

- يا أبو عثمان، تعال ماشي وين، ارجع. وكانت تبكي.

قال لها: - ما تخافي أنا جاي. (أي لا تقلقي.. أنا سوف

أعود).

أخذتنا أمي إلى غرفتها القطية، وكانت لديها بعض المجوهرات؛ أخذتها وخبأتها في ثيابها، وجمعت بعض الخبز الجاف وبعض الأشياء في كيس كبير، وكانت تردد:

- لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

وبعد قليل تعالت أصوات الصراخ، وانتشرت الميليشيات في جميع أنحاء القرية، وأصبحنا نراهم من فتحات الغرفة على مسافة ٥٠ متر.

كانوا يحرقون المنازل، ويجلدون كل من يجدوه قبل أن يطلقون عليه الرصاص، أو يحرقونهم أحياء، وهنا سيطر الخوف عليَّ وعلى أمي وإخواني، وعرفت أن هذا اليوم ربما نهايتنا وننتظرها هنا في هذا المكان، ولا مفر منها.

بعد هذه المشاهد سرعان ما تيقنت تمامًا أن أبي قد مات

وهو خارج المنزل، وأن عليَّ إنقاذ عائلتي، وسوف أفعل كل ما بوسعي، وبينما أنا أتكلم في نفسي إذا بشخص كان يمشي على ركبتيه يرتدي جلبابًا أبيضًا متجهًا إلى غرفتنا، فعرفت أنه أبي.

أسرعت وفتحت له باب الغرفة، فدخل وحمدت الله على ذلك، ولكنه أصيب إصابة طفيفة على فخذه، فربطت له مكان الجرح، وسألته:

- مشيت وين يا بابا. (أين ذهبت؟).

فقال: - مشيت أجيب جدك هنا لكن أبى. (ذهبت لجدك لكي نأتي به إلى هنا؛ ليكون بجانبنا ولكنه رفض)، وقال إن غرفته من طين وأأمن من هذه القطية المصنوعة من القصب، وقال لي آخذكم إلى هناك.

- ولكن كيف؟! سألته مستغربًا.

قال لي: – ما عارف والله يا وليدي! (أي لا أدري كيف ذلك يا ابني)، لكن لازم نمشي، كلام جدك صح.

فقلت له: – لكن دا صعب شديد، هم كتيرين ويمكن تجينا طلقة طايشة. (هذا مستحيل، لا يمكننا ذلك، فهم كثيرون وقد تصيب أحدنا طلقة طائشة).

فقال: – دي قطية سااااي يا ولدي، ما بتمنع طلقة، ويمكن نتحرق كلنا هنا. (هذه الغرفة لا تحمي الطلقة أيضًا لأنها من القصب)، فلا بد أن نذهب إلى غرفة جدك، إنه أأمن، إلا إذا دخلوا علينا المنزل، والآن الحريق في كل مكان، والدخان يتصاعد، ولو جلسنا هنا سنحترق لا محال، علينا أن نستقبل هذا الوضع، وقبل أن تختفي هذه الأدخنة ربما تكون لنا حاجزًا من أن يرونا.

فقلت له: – تمام يا ابوي، خلينا نمشي.

فاتفقنا أن نذهب على مجموعتين، أنا وأمي وخالد الصغير نخرج ثم يلحقنا أبي مع سيد وسعيد، وغرفة جدي لا تبعد كثيرًا لأننا جميعنا في المنزل الكبير، فخرجنا وكان الدخان كثيفًا، لا يمكننا رؤية شيء، فقط لأنني تعودت وحفظت مداخل ومخارج البيت، فكان ذهابي إلى الغرفة لم يكن صعبًا. أمسكت يد أمي وخالد وتحركنا إلى غرفة جدي، وكانت الأدخنة في كل مكان، فكنا نتخفَّى بها في طريقنا.

وصلنا الغرفة ودخلنا بقوة، من شدة الخوف كسرنا باب الغرفة، ووجدنا جدي جالسًا وبيده سبحته.

بكل هدوء قال لنا: - تعالوا ادخلوا يا أولادي.

فدخلنا وكنت قد أُصبت في كتفي ببعض الحروق.

سألنا جدي: - أبوكم وين وباقي الأولاد؟

أجبته: - جايين ورانا. (قادمون خلفنا).

فقال: - ربنا يحفظهم ويوصلوا بالسلامة.

أخذنا فترة من وقت دخولنا لم يأتِ أبي وبقية إخوتي بعدها، خفنا والتوتر والقلق عم الجميع، كنت خائفًا من أن يكون قد أصيب أحدهم أو قُتِلوا، فقررت أن أذهب وأرى ما الذي حدث، ولكن أمي منعتني، وقالت:

- ما تمشي خطوة من قدامي، وما بخليك تتحرك نهائي. (لن أدعك تتحرك أبدًا). وكانت تبكي، ثم قالت لي: - إنتَ خليك هنا أنا بمشي ليهم بنفسي، لو حصلت ليك حاجة أنا أسوي شنو؟

واستعدت للذهاب.

أمسكت بيدها، وقلت لها: - لا يا أمي، ما تمشي (تذهبي)، والله أنا قاعد (موجود)، إنتِ ما تطلعي.

وبينما نحن نتناقش قال جدي: - اهدأي يا مريم، ننتظر

فترة، إذا لم يأتوا سوف أذهب إليهم بنفسي.

وقبل أن ينهي جدي حديثه وصل أبي وإخوتي الاثنين، دخلوا الغرفة وأغلقنا الباب، وأسندنا عليه حجرًا كبيرًا لأنه قد كُسِر، وكان جدي لديه بعض الأعشاب التي يستخدمها في علاج بعض الأمراض والجروح، أحضرها وطحنها في الحجر ووضعها على جرحي وجرح أبي.

مكثنا في الغرفة حتى الساعة السادسة عصرًا لم نخرج إلى أي مكان، ولم نأكل أي شيء.

خالد يبكي من الجوع، فأخرجت أمي الخبز المجفف الذي جمعته، وأعطت كل واحد منا قطعة صغيرة نسد به جوعنا، وكانت أصوات الذخيرة تعلو في كل مرة، ووجدنا في داخل الغرفة قطعة من الفخار الذي يصنع منه الزير (والزير هو ماعون فخاري يصنع من الطين لتبريد المياه) وجدناها مكسورة، فاستخدمناها لقضاء حاجتنا فيها،

وكان مكانه أمام الباب من الداخل نظرًا لأننا لا نستطيع الخروج، وبينما نحن جالسون كان أبي يمسك سبحته بيده ويقرأ أذكاره، سألت جدي وقلت له:

- هم بقتلونا لشنو، ونحنا عملنا ليهم شنو؟ (أي لماذا يقتلوننا، وما السبب في ذلك؟).

أجاب جدي: - يا ابني، هم يفعلون ذلك لأن الحقد قد ملأ قلوبهم، ونار الفتنة قد أحرقت دواخلهم، وغابت عن قلوبهم المحبة، الحب يا ابني هو المَخرج من اللا وجود إلى الوجود، والحرب عكسه، فالقاتل لا يُعلن الحرب على الآخرين إلا إذا كانت الحرب قد أُعْلِنَتْ بداخله، واشتد لهيبها، وثار غبارها، فأعمى العيون والأبصار والبصيرة، فالمجرم دائمًا إنسان ينزف حقدًا وبغضًا من الداخل.. أما من كانت نفسه سليمة فهو يتجول بسلامٍ بين الآخرين.

فقال له أبي: - إنها الفتنة يا أبا ليلى. وهو يقصد جدي.

فقال جدي: - الحمد لله أن ليلى لم تكن موجودة وإلا كان الوضع سوف يكون أسوأ بكثير؛ لأنها تعاني من الجيوب الأنفية ولا تستطيع أن تجلس معنا في هذه الغرفة.

وكانت ليلى قد سافرت قبل ثلاثة أيام مع زوجها إلى مدينة الفاشر لمقابلة الطبيب لأن حملها قد تأخر، وتريد أن تعرف أين المشكلة.

وعند تمام الساعة السابعة والنصف سمعنا أصوات الخيل، ورجال يتحدثون ويقولون:

- هذا هو المكان.. هذا هو المكان.. ده البيت.. أيوه دا بيت العمدة (أي نعم هذا هو منزل العمدة).

وكانوا يتحدثون فيما بينهم ويتناقشون، ويطلقون الرصاص في أماكن مختلفة من المنزل، ولكن جدي كان هادئًا، وجميعنا تيقنا أن هذا يومنا، ونطقنا الشهادة.

كانت هذه الغرفة لم تكن غرفة للسكن، ولكنها كانت مخزن يتم فيه وضع الأشياء المهمة، وكانت من ضمن هذه الأشياء كمية كبيرة من التمباك أو الصاعود الذي يمتاز بالرائحة النفاذة، ولا تستطيع الجلوس بالقرب منه لمدة ثانية واحدة، وكان شديد الحساسية للجهاز التنفسي، ويسبب الكحة المباشرة، لكننا ولحكمة ما لم نشعر أننا جالسون عليها طول هذه المدة، ولم يكح فينا أحد أو يعطس حتى، ربما بسبب الخوف والهلع.. ربما!

وأثناء هذه الأحداث أطلق أحدهم رصاصة داخل الغرفة، فصرخ خالد، وبعدها عرفوا أن أناس داخل الغرفة، فدخل أحدهم الغرفة، وقال:

- اطلع يا عمدة.. اطلع برا يا جبان. (أي أخرج لنا خارجًا).

خرج جدي، وقبل أن يتحدث بكلمة واحدة ضربه

أحدهم بعصا، فطرحه أرضًا، وقال:

- نحنا نفتش فيك من زمان يا... (أي نحن نبحث عنك منذ فترة، وشتمه)، وعندما وضع القيد على يديه من الخلف، وربطه خلف الحصان دخل علينا بعضهم الغرفة، وعند دخولهم أدخل أحدهم رجله داخل كسرة الفخار أو (الشِقْفَة) -الإناء الذي كنا نقضي فيه حاجتنا- وكان بالقرب من الباب، فغضب كثيرًا، وضرب طلقة أصابت سيد، وكان يحمل سلاحه الجِيم الجديد اللامع، يبدو أنهم منحوه إياه قبل هذه المجزرة بساعات قليلة، يرتدي جلبابًا ومن فوقه بدلة عسكرية ذات اللون الأخضر المبرقع المتسخ، وعلى صدره درع مليء بخزائن الذخيرة (كفوف الذخيرة)، والقنابل اليدوية (القرانيد)، أو كما يسمونها القِشْطَة، وحذاء عسكري (بوط) ممزق، وعلى رأسه قطعة قماش طويلة مُلتفة عليها (الكَدْمُول)، وجهه مليء بالغبار،

والأتربة، وآثار الدخان، وعندما رآني أنا وأبي أخذنا خارج الغرفة، وكان يقول:

- أُرقد.. أُرقد يا كلب. (يقصد استلقي أرضًا).

وكان يشتمنا بأفظع العبارات، وآخرون يسألون أين البنات؟ أين النساء؟ وكانوا يريدون اغتصابهن، فأجبتهم:

- ما عندنا بنات. (أي لا يوجد لدينا بنات)، فضربني على رأسي، وقال لي: - اسكت.

سمعت هناك أحدهم يقول: - جيبوا المرة دي. يقصد أمي.

فصرخت بأعلى صوت: - لاااا لاااا، أمي لا.

فضربني مرة أخرى كدت أفقد فيها وعيي، ولكن عندما سمعت أمي هذا الكلام لم تقبل بالإهانة، فأخذت السكين وذبحت نفسها.

نعم انتحرت.. فسمعت إخواني يصرخون باسم أمي، والجنجويد يقولون: - ذبحت نفسها النجسة.

فأطلقوا عليها الرصاص بعد ذلك، نعم.. أطلقوا عليها الرصاص بعد أن ماتت، إنها أمي، وأقول في نفسي:

- هل هذه حقيقة؟ هل ماتت أمي؟

لم أتمالك نفسي، وأحسست أن الدنيا تدور بي، وعرفت وتيقنت حينها أنه لا معني حقيقي للحياة بعد الآن.

أخذوا أبي وأوقفوه على الشجرة، وأُطلقت عليه كمية من الذخيرة، وما زلت أسمع أبي يقول:

- لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فصرت أردد الشهادة معه، وقلت: - مات أبي وماتت أمي، مات أبي عمر وماتت أمي مريم.

كانت دموعي لا تتوقف، حينها فقط كنت أريد الموت

حقًّا، وعندما تذكرت أنني سوف يأتي دوري لأموت كنت أشعر بالسعادة حتى أنال الشهادة، فلما أتى دوري سمعت أحدهم يقول:

– دا ما تخسر فيه ذخيرة كفاية (أي لا يستحق أن تطلق عليه الرصاص)، أدخله إلى الغرفة ونشعل عليهم النار.

فرفعوني وجدعوني داخل الغرفة، ورشوا الجاز عليها وأحرقوها، وأخذوا معهم جدي مربوط على الحصان بعد أن كان فاقدًا للوعي، وتركونا نحن نحترق مع جثة أمي الطاهرة وإخوتي، وأبي كان مرميًّا تحت الشجرة غارقًا في دمه.

ولكن لسوء حظي أنني لم أمت، نعم.. كان حظي سيئًا للغاية، في هذه اللحظة أفضل ما سوف يحدث لي أنني أموت، ما الذي أنتظره لأعيش، وهل سوف أعيش أم لدي بعد الجرعات من العذاب أرتشفها، ثم أمضي وألحق

بعائلتي وجدي.. أين أذهب؟!

عندما قاموا بحرق الغرف تم رش الوقود على خشب الباب، فاكتفوا بذلك، واشتعلت النيران، فذهبوا جميعًا، وكنا ننتظر موتنا أنا وسعيد وأخي الصغير خالد، كنا ننتظر أن تحترق أجسامنا وتتفحم.

احتضنتهم الاثنين هنالك في آخر ركن من الغرفة، وسحبت سيد وأمي إلى هناك لكي تحترق جثثهم بجانبنا، جلسنا ننتظر لحظة مجيء أجلنا، ولكن أخي الصغير لا يحتمل، فاختنق بالدخان ومات قبل أن تصل إلينا النار.

فجأة أحسست أن النار بدأت تتراجع، وكأنها تقول: - قد أخذتُ كفايتي، واكتفيت بقتل خالد.

أخذت بعد الأشياء التي لم تحترق ووضعتها فوق الجمر، وصنعت ممرًا لكي أخرج أنا وأخي، آخر ما تبقى لي من

الدنيا، عسى أن نجد فرصة للعيش، وكان الليل قد أتى، وانسحبت الميليشيات من المحلية بعد تدميرها، وكانت ألسنة النيران ما زالت تحرق ما تبقى من بشر.

ذهبت ووضعت أخي سعيد خارج الغرفة، وحفرت ثلاثة حفر، دفنت فيها أمي وأبي وإخواني الصغار، ثم أخذت سعيد لكي نري أين نذهب وإلى أين نتجه، فتذكرت ميمونة حبيبتي.. تلك الحسناء، ولكن كنت متأكدًا أنها عرض مغري للجنجويد، ولكن شيء ما يراودني أن أذهب إلى منزلها، ربما أجد شيء من ذكراها أحتفظ به عندي.

بينما نحن ذاهبون إلى منزلهم قابلنا أحد أفراد الجنجويد الذين تخلفوا، وكانوا ينتظرون إخوانهم غدًا، فقال لي: - أنا ما بسألك، لكن حاول أن تطلع من هنا قبل الصبح لأن نحنا جايين ننضف (أنا لا أسألك، ولكن حاول أن تخرج من هذه المدينة في هذه الليلة؛ لأننا قادمون للنظافة النهائية،

وهذه فرصتك).

فقلت له: - أمشي وين؟ (أين أذهب؟)

قال لي: - إن أكثر من سبع نساء وأطفال خرجوا الآن وذهبوا بهذا الطريق، يقولون أنهم ذاهبون إلى مدينة الفاشر، فالحق بهم ولا تكثر من الأسئلة.

وذهب في طريقه.

وبعد مسافة من سيرنا التفت يمينًا، فإذا بحسنين مستلقيًا على الأرض ملطخًا بدمائه، فحزنت عليه كثيرًا، وأغمضت له عينيه، فقد قُتل حسنين الذي كان من أطيب الناس في القرية.

أخذت سعيد وذهبت مسرعًا إلى ميمونة، ولم يكن في الحسبان أنني أجدها، ولكن عندما وصلت وجدت أن جميع أفراد عائلتها قد قُتِلوا، وتفاجأت بميمونة في أنفاسها

الأخيرة، ولكنها ما زالت حية، تلك الحسناء قد اغتُصِبت من مجموعة كبيرة من أفراد الجنجويد، وتم ضربها حتى تشوَّه وجهها، أخذتها دون مقدمات وحملتها على كتفي، وأمسكت أخي سعيد بيدي، وتحركنا مسرعين للخروج من منطقة طويلة متجهين إلى مدينة الفاشر..

كنت أسير ومعشوقتي على كتفي..

تبدو كأنها قد عرفتني عند مجيئي إليها، لأنني رأيتها تبتسم بما تبقى لها من قوة، ولكنني كنت في قمة وجعي، حتى فقدت إحساسي بطعم الحياة، ربما عندما وجدتها تتنفس عادت لي الروح، وأحسست أن هنالك شيء ما أعطاني الأمل لكي أعيش من أجلها، الآن تَبَقَّى لديَّ اثنين هم عائلتي، سعيد أخي الصغير وميمونة حبيبتي، والآن عليَّ إنقاذهما بقدر الإمكان.

حملتها ودموعي تنهمر حتى صِرتُ لا أستطيع الرؤية،

فتذكرت أمي وأبي وجدي وكل العائلة الجميلة، تركتهم تحت أنقاض الأرض، تركت مدينتي، تركت جميع الذكريات الجميلة، تركت حياتي خلفي، كلها انتهت.. مُحيَت من الوجود.

ذهب كل هذا في يوم واحد، في ليلة واحدة أصبحت حياتي وحياة الملايين بلا معنى، بل إن الملايين قد قُتِلُوا وانتهت حياتهم، وربما من تبقى من هذه المحرقة ستكون حياته بلا معنى أو بلا حياة إن صح التعبير.

كنت أسير ومعشوقتي على كتفي، وربما عاد لها وعيها، فنادتني: - عثمان!

فجأة توقفت عن المشي، فكان صوتها بمثابة حياة جديدة بالنسبة لي. أنزلتها وأجلستها، ولساني عجز عن قول أي شيء، فقط احتضنا بعضنا نحن الثلاثة وقمنا بالبكاء الشديد، والدموع لا تتوقف، على ماذا نبكي؟ على

أمهاتنا أم آبائنا؟ أم نبكي من أجل إخواننا؟ أم ماذا؟ كل شيء حدث يكفي لبكاء الدهر كله، ولكن علينا أن نذهب، علينا أن نسير ونبتعد عن هذه المنطقة، فأردت أن أحملها مرة أخرى، فقالت لي إنها يمكنها المشي، فأسندت يدها على كتفي وأصبحنا نسير بخطوات بطيئة والدموع لا تتوقف، فقلت في نفسي:

– عليَّ أن أكون قويًّا ولا أُظهر لهم أننا انتهينا، ويمكننا أن نكمل معًا. فتوقفت عن البكاء، وقلت لهم:

– علينا أن نسرع قليلًا.

فبينما نحن في طريقنا نحو المدينة فإذا بحمار مربوط على قارعة الطريق، من الواضح أن صاحبه قد قُتِل في مكان ما هنا عندما كان يعمل في مزرعته، فأخذت الحمار، وأردفت ميمونة وسعيد، وواصلنا مشوارنا تجاه الأمل.

فجأة وأنا أسير خلف الحمار الذي يحملهم أحسست بالدوار، وأنني لا أستطيع المشي، فتذكرت أننا لم نأكل شيء على مدار اليوم، فرفعت رأسي، فرأيت سعيد لا يستطيع الجلوس على الحمار من شدة جوعه، ويقول: - أنا أشعر بالجوع والعطش..

ولكن من حسن حظنا أننا في فصل الخريف وكانت المزارع بها ما يؤكل.

أوقفت الحمار وأنزلتهم، وذهبت على طرف المزرعة التي يُزرع فيها محصول التمباك، أبحث عن شيء لنأكله، فوجدت بعض الطماطم المزروعة على حافة المزرعة، فأخذت بعض الطماطم وعدت إليهم، فكان سعيد جائعًا جدًّا، فأخذ يأكل بشراهة، وبعد أن أكلنا الطماطم تذكرت أنها لم تغسل، وأنها كان عليها بعض آثار التمباك الذي يسبب التقيؤ والاستفراغ، وسرعان ما بدأ سعيد في الاستفراغ، تذكرت

جدي، كان يقول لي: - إذا أحسست بالتقيؤ وأنتَ تعمل في المزرعة بسبب التمباك ابحث عن عرق شجرة اسمها مهوقني أو السيال وكل منه. وهذه الأشجار كانت متوفرة في كل مكان.

ذهبت وأحضرت بعض العروق، وأعطيتها لسعيد وميمونة، وبعد أن أكلا هذه العروق أصبحا أفضل، أردفتهما مرة أخرى على ظهر الحمار، وأخذنا نسير، وهذه المرة أسرعنا قليلًا.

ربما لا أعيش بعد اليوم، ولكن أريدك أن تعرف أنني..

التقينا ونحن في طريقنا ببعض الفارِّين أيضًا من النساء والأطفال، عددهم لا يتجاوز ال١٥ فردًا متجهين نحو المدينة، أصبحنا مجموعة كبيرة نساعد بعضنا البعض، فمنهم من كان لديه إصابة بطلقة نارية، ومنهم من يعاني من الأمراض المزمنة، وكنا نسير طول الليل دون توقف،

فأحسست أن ميمونة بدأت تتعب من جديد، فقلت في نفسي: - بما أننا ابتعدنا عن مكان الخطر فعلينا التوقف لبعض الوقت.

كنا قد شارفنا على الخروج من المنطقة الحدودية لمحلية طويلة والدخول إلى مدينة الفاشر.

وجدنا مزرعة للدخن، كان صاحبها قد بنى غرفة صغيرة بوسط المزرعة يخزن فيها محصول الدخن بعد الحصاد، أنزلنا رحالنا في هذه المزرعة وتفرقنا إلى مجموعتين، مجموعة وافقت على أن تأخذ بعض الراحة والاسترخاء ثم تعاود المشي في الصباح، والمجموعة الأخرى قرروا المُضي قُدْمًا نحو المدينة خوفًا من أن تصلهم عصابات الجنجويد، والأفضل لهم أن يبعدوا عن هذه المناطق أكثر.

بقينا نحن الثلاثة ومعنا امرأتان وثلاثة أطفال، دخلنا جميعنا في تلك الغرفة الصغيرة، وأخذت ميمونة في

الاسترخاء، وسعيد قد نام من كثرة التعب، ولكني بقيت مستيقظًا ولم أفكر في النوم، فقط اتكأت على الباب والحزن والقهر يقتلاني معًا، ودموعي لا تتوقف.

وبينما أنا جالس وأتذكر أمي وأبكي بحرقة، فإذا بميمونة تخرج أصوات غريبة وتشير إليَّ، جئتها فأمسكت بيدي، وكانت قد ارتفعت حرارتها بشكل كبير جدًّا، وكانت تقول لي:

- عثمان.. ربما لا أعيش بعد اليوم، لكن أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا.. هو أنني أحببتك من كل قلبي، وتمنيت أن أعيش معك أكثر، ولكن أنا سوف أموت يا عثمان، أريدك أن توعدني أنك ستعتني بنفسك، وإن شاء الله سوف نلتقي في جنات النعيم، أنا أحبك.

وعندما سمعت هذا الكلام لم أستطع أن أتمالك نفسي وأن أتحكم بأعصابي وأتماسك، فصرخت بأعلى صوتي:

- ميمونااااااة.. أرجوكِ.. لا تتركيني، لا تتركيني أنتِ أيضًا، أنا أرجوكِ، أنا لم أكن قويًّا لهذه الدرجة، يا الله.. ألهمني الصبر يا الله.

بعد صرختي هذه سمعنا صوت بندقية على مسافة لم تكن بعيدة من جهة الغرب، فترجتني الامرأتان أن أتماسك قليلًا وإلا جميعنا سنُقتل في هذا المكان، لكني كنت منهارًا لدرجة أنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي فيها، فصرخت مرة أخرى قائلًا:

- أنا لا أريد أن أعيش، فمن أراد أن يقتلني فليأتِ، أنا حقًّا أريد الموت.

أمسكت ميمونة بيدي بصورة قوية جدًّا، وقالت بصوت خافض:

- ألا تريد أن تَعِدَني بأنك ستعيش وتعتني بنفسك؟ أنا

أريد أن أموت وأنا مطمئنة عليك.

تماسكت قليلًا، وقلت لها: - حسنًا، سأعِدُكِ، لكنك ستعيشين معي.

قالت: - أنا أحبك...!

وفجأة نطقت الشهادتين، وأحسست أن يدها لا تتمسك بي كما كانت من قبل، وعرفت أنها ماتت، فبدأت أقول:

- ماتت.. ماتت!

وقبل أن أصرخ قامت امرأة ووضعت يدها على فمي، وقالت:

- وحِّد الله، واجعل قلبك مليء بالإيمان.

سألتها: - هل ماتت فعلًا؟

قالت: - الأعمار بيد الله.

قلت: - نعم ماتت.. ولم يتبقَّ لي أحد.. أنا خسرت كل شيء.. ذهبت.. خسرت أملي الوحيد.. ما الذي تبقى لي في هذه الدنيا؟!

فقالت: - لديك أخاك هذا، عليك الاعتناء به.

وكان سعيد جالسًا ينظر إليَّ ودموعه لا تتوقف، احتضنته وقبَّلته على جبينه، ودعوت الله أن يحفظه لي، إنه فقط ما تبقى لي في هذه الفانية.

قلت له: - أحبك يا أخي.

جمعت شتات قواي، وحفرت حفرة بالقرب من الغرفة، ودفنت فيها ميمونة، صرت أدفن أجزاء مني وأتركهم في غياهب الأرض وأمضي، هكذا حياتي الآن!..

جلست وأخذت أخي بأحضاني، ولا أريد أن أخسره هو أيضًا، فكنت أخاف عليه من كل شيء، كان يسألني وهو في

أحضاني ويقول لي:

- لماذا فعلوا بنا كل هذا؟ إلى أين سنذهب؟ وكيف سنعيش وحدنا؟ هل ستعود أمي في يوم ما؟ وأين جدي؟ لقد أخذوه معهم، هل يتركوه يعود؟ هل أصبحنا دون منزل بدون أم وأب؟

قلت له: - اسكت يا سعيد، فوالله أنا لا أستطيع أن أتحمل ما تقوله لي، أنا فقط أريدك أن تكون بخير معي ولا تتركني يا سعيد، لم يتبقَّ لنا سوى أنفسنا، ولا ندري هل نموت قبل أن نصل المدينة أم لا، ولا ندري ما الذي أخفاه لنا القدر، ولكن أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا لبعض.

أخذ سعيد بعض الوقت لم يقل شيئًا، فخفت وقلت له:

- سعيد.. مالك، في شنو؟ (ما الذي حدث؟)، أخبِرني!

سألته وأنا خائف، فقال لي: - لا تقلق.. أنا بخير الآن،

ولكن لا أدري هل سوف أكون كذلك أم لا.

قلت له: - سعيد، أرجوك لا تقل شيء، صدقني أنا لم يعد بإمكاني تحمل كل هذا، لقد اكتفيت.

فقال لي: - أخي، هل ستتركني وحدي؟

أجبته بسرعة: - لا أبدًا.. أنا أوعدك.. لكن أوعدني أنتَ أيضًا بألا تتركني وحدي.

فقال لي: - حسنًا، لن أتركك.

قلت: - الحمد لله رب العالمين.

أخذ سعيد يفقد وعيه تدريجيًّا..

كان هناك بعض الماء في نهاية الإناء لا تكفي لشخصين قد تركها صاحب المزرعة، فأخذت جزءًا منها وأعطيتها لسعيد أخي، وكان يشعر بالجوع، فقلت له:

- علينا أن نأكل من هذا الدخن حتى يأتينا الصباح.

فأخذنا نأكل ونتصبر حتى قاربت الشمس من الشروق. قالت إحدى الامرأتين أنه ربما إذا تحركنا في الصباح سوف يجدنا العدو أو يرونا من بعيد، فاقترحت أن نتحرك ليلًا ونمكث النهار في مكاننا، فقلت في نفسي: - هذه المرأة مُحِقَّة، ولا أستطيع المجازفة أكثر، فلنتريث قليلًا إلى مساء الغد.

أتى الصباح وخرجت أبحث عن شيء نأكله، فوجدت بالقرب من الغرفة الصغيرة مجموعة من البطيخ، أخذت كفايتنا منه وعدت إلى الغرفة.

وبين حين لآخر نسمع صوت حركة الأحصنة والجمال تارةً وهمهمة وأصوات الذخيرة تارةً أخرى، ولكن الحمد لله قضينا طول النهار ولم يجدنا أحد، حتى جاء وقت المغرب، وشددنا الرحيل.

أخذت إحدى الامرأتين حمارنا لأنها كانت تعاني من

بعض آثار الحروق، وأصبحت لا تستطيع المشي، فأرفقت معها أحد أبنائها، وأخذت سعيد على كتفاي، وبدأنا نخطو خطواتنا الأولي بعد يوم كامل، وبعد أن ذهبنا مسافة وجدنا امرأة ميتة على الطريق، وهي كانت ضمن الذين قرروا الذهاب وعدم المبيت، فأبت نفسي أن أتركها هكذا، فدفنتها وواصلنا السير.

كنت أنظر إلى المرأة التي على ظهر الحمار هي وابنها، وقد بدأت تفقد وعيها وتريد أن تسقط، فأنزلت سعيد من على كتفاي وحملتها إلى الأرض، فإذا بها في آخر أنفاسها، لم تمهلنا قليلًا وقد فارقت الحياة هي أيضًا، ماتت وتركت ولدين دون أحد، ربما تحجر قلبي وأخذت الموضوع على أنه طبيعيًّا، أن من مر بكل تلك المآسي لا تتأثر فيه هذه المواقف.

دفنتها هي الأخرى، وأخذتُ أبناءَها وهم يبكون، أخذتهم معي، وكنت أقول لهم:

- أنتم إخوتي من الآن فصاعدًا.

التفتُ إلى سعيد ووجدته يبكي، فسألته: - ما بك يا حبيبي؟

قال إن ثعبان قد لدغه.. أحسست أن الدنيا تدور بي حقيقةً، والآن الحقيقة أنا لا شيء، لقد فقدت كل أحبابي، وأخيرًا أخي.

أخذت أمتص سم الثعبان من مكان اللدغ، وصرت أضع كل ما أجده أمامي من العشب على مكان الإصابة، كنت كالمجنون.

قلت في نفسي: - هذه المرة لا تستسلم، افعل أي شيء.. فقط لا تستسلم .

وأخذ سعيد يفقد وعيه تدريجيًّا، وآخر ما نطق به كان يناديني، ويقول: - أخي.. أخي...!